

وزارة التربية والتعليم

فصول مختارة من كتب التاريخ

من أواسط القرن السابع إلى العصر الحديث

الجزء الثالث

للسنة الثالثة الثانوية

تأليف

طه حسين — عبد السلام هارون

على البجاوى — ابراهيم الإبيارى

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعرض عليك أستاذك فى درس التاريخ حادثة من حوادث الماضى القريب أو البعيد ، فتستقر من هذه الحادثة صورةٌ فى نفسك تألفها وتطمئن إليها ، ثم تقرأ كتابا من كتب التاريخ فترى صورةً لهذه الحادثة نفسها مخالفة للصورة التى عرضها عليك الأستاذ ، فيأخذك شىءٌ من الحيرة بين ما سمعت وما قرأت : لهذا الاختلاف بين صورتين لحادثة واحدة معينة . وقد تقرأ كتابا آخر فترى فيه للحادثة نفسها صورةً ثالثة فيها مخالفة قليلة أو كثيرة للصورتين التى سمعت إحداهما وقرأت إحداهما الأخرى فى ذلك الكتاب . فتشتد حَيرتك وتوشك أن تدفع إلى الشك فى قيمة التاريخ نفسه وأن تسأل نفسك كيف السبيل إلى تعرُّف الحق الواضح فيما يتصل بالأحداث التى بَعد العهد بينك وبينها فى الزمان دائما ، وفى المكان غالبا .

ذلك لأنك ألفت نوعا من الحقائق لا يختلف علمك به حين تسمعه من أساتذتك ، وحين تقرؤه فى الكتب المختلفة مهما تكثر ؛ وهى حقائق العلم الذى يعتمد على التجربة والمشاهدة . فالقوانين الطبيعية التى تُعرض عليك فى المدرسة هى بعينها التى تقرؤها فى الكتب ، فليس لك بدّ إذن من أن تفرق بين نوعين من أنواع المعرفة ، أحدهما يأتى من المشاهد المباشرة ويتأكد بالتجربة المتكررة .

والآخر يأتى عن طريق النقل والرواية ، ولا سبيل إلى أن تكرره أو تخضعه للتجربة ، لأنك لا تستطيع أن تعيد الماضى ، ولا تستطيع أن ترجع بالزمن أدراجه لترى الأحداث القديمة حين تحدث ، وتشهدها من كثب ، وتأخذ منها فى نفسك صورة دقيقة مطابقة للواقع من أمرها أشدَّ المطابقة ، وأبعدَها عن الشك ، وأقلها تعرضا للاختلاف .

والتاريخ نوع من هذه المعرفة التى لا تستطيع أن تتلقّاها من أصولها مباشرةً ، وإنما تتلقاها من طريق النقل والرواية المتصلة .

ومعنى هذا أن علمك بأحداث التاريخ لا يتأتّى لك إلّا بعد أن يمر بعقول أخرى غير عقلك ، وعصور أخرى غير عصرك ، وظروف أخرى غير الظروف التى تحيط بك .

فليس له بد من أن يتعرض للتأثر القليل أو الكثير بهذه العقول ، والعصور ، والظروف . فالحادثة التى تحدث منذ قرون طوال ثم يسجلها المؤرخون إثر وقوعها ، ثم يأخذها عن هؤلاء المؤرخين جيلٌ آخر من كُتّاب التاريخ ، ثم تتناقلها الأجيالُ وتصورها فى الكتاب ، لا تصل إليك خالصةً من كل شائبة ، مبرأة من كل أثر لهؤلاء الذين تناقلوها ، وللظروف التى أحاطت بهم حين تناقلوها ، ولحظوظهم المختلفة من الدقة فى النقل ، والصدق فى الرواية ، ومن حسن الفهم ، وصواب الحكم ، وبراعة التصوير والتعبير .

وهى إذن لا تصل إليك كما وقعت ، ولا تصل إليك وحدها ، وإنّما يصل إليك معها شىء آخر أضافه إليها الذين نقلوها إليك عن ذات نفوسهم ، ومن طبيعة أمزجتهم ، يفعلون ذلك عن عمد أحياناً ، ويضطرون إليه اضطراراً أحيانا أخرى .

فالتاريخ إذن لا يصور الأحداث الماضية تصويراً مجرداً ؛ وإنما يصورها تصويرا فيه كثير من الإضافة ؛ وفيه كثير من التعقيد .

والتاريخ من هـذه الناحية يوشك أن يكون لوناً من ألوان الأدب : لأنه لا يعطيك حقائق الواقع كما هى ، وإنما يعطيك هـذه الحقائق ومعها شىء قليل أو كثير من أمزجة المؤرخين . ومن هنا ننـظر إلى التاريخ نظرتين مختلفتين : إحداهما تفرض كثيرا من الاحتياط ، وتضطر القارئ إلى الجهد والبحث والتحرى ، ليصل إلى ما يرجح أنه الحق ، والأخرى تثير كثيرا من المتعة الفنية ، لمكان هذا العنصر الأدبى الذى يصور نفوس المؤرخين وعقولهم . وميولهم وأهواءهم وأمزجتهم ، والظروف الكثيرة التى تحيط بهم حين يكتبون التاريخ .

فأنت إذن تقرأ التاريخ لتلتمس فيه العلم بالحقائق التى لاتستطيع أن تشهدها ، لأن زمانها قد انقضى ، وتقرؤه لتلتمس فيه المتاع الأدبى الذى تلتمسه فيما تقرأ من النصوص الأدبية الخالصة .

من أجل هذا ، كان من الخير ، كل الخير ، أن تُعرض عليك فى هذا الطور من أطوار الدرس نصوص تاريخية مختلفة باختلاف المؤرخين وعصورهم ، وبيئاتهم ، وظروفهم ، لتقرأها مستمتعا بها أولا ، وموازنا بينها ثانيا .

ومحققا فى نفسك بعد ذلك ما يكون بينها من التفاوت فى تصور كُتّابها للأحداث ، وفى تصويرهم لها ، وفى أدائهم لما يرسمون من الصور . وأنت واجد فى هذا كله تثقيفا لنفسك ، وتغذية لعقلك ، وتنمية لذوقك ، ومرانا بعد هذا كله على استخراج حقائق التاريخ من مصادره المختلفة المتباينة أشدّ الاختلاف ، وأعظم التباين .

والتاريخ الإسلامى جزء خطير من تراثك القديم ، يجب عليك أن تحسن العلم به ، وأن تعرف الأطوار التى اختلفت عليه ، وأن ترى كيف كان المؤرخون يروُون الأحدَاث أول الأمر عن الذين شهدوا أو شاركوا فيها . ثم كيف كانت أجيال أخرى تأتى بعد أولئك فتقرأ رواياتهم وتحاول الموازنة بينها ، واستخراج الحق منها ، وكيف تَتَابَعَ ذلك بتتابع العصور، حتى كان العصر الذى تعيش فيه، وأخذَ كتّاب من المعاصرين يصورون لك الأحداث البعيدة تصويرا يلائم عقلك الحديث ، ويلائم ما يحيط بك من ظروف هذه الحياة المعاصرة التى تحياها .

وأنت حِين تقرأ هـذه النصوصَ ستلاحظ الأطوار المختلفة التى تتابعت على هذا الجزء من تراثك القديم ، كما تتابعت على غيره من الأجزاء المختلفة من الأدب والعلم والفلسفة ، وسترى كيف كان التاريخ ساذجا أوَّلَ أمره حين كان أصحابه يعتمدون على الرواية مشافهة ، يلقيها بعضهم إلى بعض فى الأندية ومجالس الدرس وكيف أصبح بعـد ذلك فنّا يفرغ له المؤرخ فيما بينه وبين نفسه وكتبه ، فيفكر فيه ويختار منه ، فيأخذ بعضه ويترك بعضه الاخر ، ويسجل منه ما يستقيم له ، ويدع منـه مالا يستقيم ، متثبتا مما يأخذ بمقدارِ ما كان علمه يتيح له التثبّت ، متأثرا فى هـذا كله بظروفه السياسية ، وميوله الدينية ، وأهوائه المذهبية ، وطاقته العقلية . وكيف أصبح التاريخ فى وقت من الأوقات موضوعا للنظر الفلسفى عند مؤرخ كابن خلدون يحاول أن يستخرج منه نظريات عامة تصور الحياة الاجتماعية للناس مهما تختلف عصورهم وبيئتهم . ثم كيف ضعف أمر التاريخ فأصبح نقلا من الكتب يأخذه بعض المؤرخين عن كتب بعض ، مقلدين لا مجتهدين ولا مجددين. ثم كيف تغيرت نظرة المعاصرين للتاريخ فأخذوا يقيسونه بمقاييس العصر الحديث ، ويحكّمون العقل ومناهج البحث

فيما نقل إليهم منه ، فيثبتون ما يلائم هذه المقاييس الحديثة وينفون مالا يلائمها ، ويفهمون من أجل ذلك حياة الجماعات القديمة فهماً أدق وأصدق من فهم القدماء لها . إذ أتيح لهم من العلم ومناهج البحث ما لم يتح للقدماء ، فكان فهمهم أدقّ ، وحكمهم أصدق ، وتصويرهم أدنى إلى الحق .

وأنت لا تلاحظ هذا التطور فى حقائق التاريخ وحدها ، وإنما تلاحظه أيضا فى الصور التى يعرض المؤرخون فيها هذه الحقائق . فعبارات المؤرخين وأساليبهم رائقة رائعة فى العصور الأولى ، حين كان الأدب العربى غضًّا قويا ، خالصا من شوائب العجمة . وهى بعد ذلك معرضة للضعف والتعقيد والاضطراب : تسعى إليها وتشيع فيها قليلا قليلا ، حتى إذا بلغ الضعف أقصاه ، كُتِب التاريخ بلغة عامية أو قريبة من العامية . ثم ينهض الأدب فى العصر الحديث فينهض معه التاريخ فى معانيه وألفاظه وأساليبه جميعا .

فهذه النصوص التى تعرض عليك فى أجزاء هذا الكتاب لا تثقّفك فى التاريخ وحده ، وإنما تضيف إلى هذا التثقيف شيئا آخر له خَطَرُه ونفعه ، فتعطيك صورة واضحة أشدَّ الوضوح لتطور الحياة العربية فى عصورها المختلفة من الناحيتين العقلية والأدبية جميعا .

وعسى أن يكون فى نفسك استعداد للتخصص فى دراسة التاريخ يوما ما ، فهذه النصوص تهيئك تهيئة صالحة لهذا التخصص بما تعرض عليك من تعدد الصور المختلفة لحقائق التاريخ ، والبحث عنها ، والتثبت منها ، والتأدية لها . وتعلمك آخر الأمر كيف توازن بين هذه الصور ، وكيف تختار منها ما يستقيم لك ، وترفض ما لا يستقيم ، وكيف تسيغ ما اخترت وتتمثله ، ثم كيف تخرجه

لقرائك فى صورته الجديدة التى ترضاها ، وتطمئن إليها ، وتريدهم على أن يرضَوها ويطمئنوا إليها .

وقد يكون فى نفسك استعداد للتخصص فى الأدب، فهذه النصوص تهيئك تهيئة صالحة لهذا التخصص أيضًا ، لأنها تعرض عليك صورًا منها الرائع البارع ، ومنها المتوسط الذى يساغ ، ومنها الضعيف الذى تضيق به النفس ، وكل هذا يُتيح لك التفرقة فى عقلك وذوقك بين الجيد والردىء ، ويعلمك التأتِّى للفن والبراعة فيه .

وقد تكون من طلاب الثقافة والمعرفة وحدهما ، لا تريد أن تتخصص فى أدب أو تاريخ ، فهذه النصوص تعطيك ثقافة ومعرفة ، وتغريك بالاستزادة منهما ، وعسى أنْ يروقك نص منها أو غير نص فتجد الميل إلى أن تقرأ منها أكثر مما عرض عليك ، فترجع إلى الأصول التى اخترنا لك منها هذا النص أو ذاك ، وتحقق بقراءة هذه الأصول ما شئت من الثقافة والمعرفة .

وسترى فى هذا الكتاب نصوصاً اختيرت لك لا لأنها تصور التاريخ الذى يستحق أن يطلق عليه هذا الاسم ، بل لأنها تصور الأصل الأول الذى نشأ عنه التاريخ حين بلغ العقل العربى أشده ، واستطاع أن يفرق بين الحق الواقع والصور التى يبتكرها الوهم والخيال حين يكون الناس فى طَور السذاجة الأولى ، يصَدِّقون فى يُسر ما يلقى إليهم من الأنباء الرائعة التى تملؤها الغرائب والأعاجيب ثم لا يصدقونها فحسب ، ولكنهم يكْلفون بها ويتهافتون عليها ، ويستبِقون إلى حفظها ونقلها ، وتورثها الأجيال للأجيال مضيفة إليها متزيدة فيها . حتى إذا بلغ العقل طَور التدبّر ، وتمييز ما يقبل مما لا يقبل ، وشاعت الكتابة بين الناس ،

واتخذت أداة لتدوين العلم والمعرفة ، نشأ التاريخ الذى يمكن الاطمئنان إليه ، وظلت عقول بعض الناس على ذلك محتفظة بطور الطفولة ، مصدقة لكل ما يروى ، مطمئنة إلى كل ما تحدث به القدماء ، فاختلط الحق بالباطل فى بعض كتب المؤرخين ، واحتاج القراء إلى أن يحتاطوا أشد الاحتياط حين يقرءون ، حتى لا يختلط عليهم الخطأ بالصواب ، وحتى لا تخدعهم روعة الأساطير عن بساطة الحقائق ويُسْرها .

فلو لم يكن فى عَرْض هذه النصوص عليك إلا أنها تعلمك الحذر ، وتنبهك إلى وجوب الحيطة ، وتأخذك بأن تستصحب عقلك دائماً فى قراءة كلِّ ما تقرأ حتى لا تؤخذ على غرة ، وحتى لا يلقى فى رُوعك ما لا ينبغى أن يستقر فيه ، وحتّى يُلقى إليك الخبر القديم فلا تكاد تقرؤه حتى تتبين أنّه يصور حقيقة من الحقائق ، أو أسطورة من الأساطير .

لو لم يكن فى هذه النصوص إلاّ هذا لكانت خليقة أن تغريك بقراءتها مشغوفاً بها ، مقبلا عليها أشد الإقبال .

فخذ إذن هذا الكتاب وأمثاله على أنها رِفاق لك تستريح إليها حين يبلغ منك الجهدُ ، وتأنس إليها حين يتاح لك الفراغ ، فستجد فيها الصديقَ الذى يرضيك دائما ، ولا يؤذيك أبداً .

طه حسين